تابع لموت الألفاظ في العربية

الباب الثالث

أسـباب إمـاتة الألفـاظ

الفصل الأول: العامل الصوتي

الفصل الثاني: العامل الدلالي

مـدخـل:

تقوم اللّغة في أصل من أصولها على مبدأ الاختيار والاصطفاء، فتموت ألفاظ فتندثر، وتولد ألفاظ فتحيا وتزدهر، وموت الكلمات نتيجة مباشرة للتطوّر اللّغوي الّذي لا يتوقّف، وهذا التطوّر نتيجة لاستعمال اللّغة وحركتها الدائمة.

وقد تختفي بعض الألفاظ من الاستعمال فتموت لأسباب عديدة، تتّفق في بعضها سائرِ اللّغات، وتنفرد ببعضها لغات، وللعربيّة أسبابها الخاصّة الّتي أدّت إلى إماتة الألفاظ فيها ممّا حُكِمَ بموته عند تدوينها، وهي ترجع - في الجملة إلى أسباب صوتيّة ومعنويّة، وقد ربط علماء العربيّة القدماء في معرفتهم لفصاحة الكلمة، وشيوعها في الاستعمال، بين عنصرين هامّين من عناصر الكلمة، وهما:

١- العنصر الصّوتيّ.

٢- القيمة الدلاليّة.

وهذان العنصران في حقيقة الأمر هما ما يعطيان الحياة للكلمة أو يسلبانها إيّاها فتترك ويستغني عنها ثمّ تموت١، وهما كما يلي:

الفصل الأول

العامـل الصـوتي

قد تموت الكلمة لسبب داخليّ فيها، وهو ما تشتمل عليه من أصوات، فلا تمتدّ بها الحياة كثيراً كمن ولد مريضاً فلا يلبث أن يموت، وآفة الكلمة أن تتقارب مخارج الحروف فيها، ((فلا يكاد يجيئ في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله))٢ وحروف الحلق خاصّة يقلّ اتصالها في الكلمة من غير فصل، وأمّا القاف والكاف فلا تجيئ متّصلة في كلام العرب، وندر ائتلاف القاف والجيم أو الكاف والجيم، فلم يأت عنهم: قج ولا جق، ولا كج وجك، ولا قك ولا كق، كلّ ذلك لتجنّب الثّقل الذي يعيق آلة اللسان بسببٍ من تقارب المخارج.

وبالجملة فإنّ تأليف الحروف العربيّة يأتي على ثلاثة أقسام٣:

فالأول: تأليف الحروف المتباعدة، نحو: كتب وجلس ودخل، وهو الأحسن والمختار، هو الكثير في كلام العرب.

والثّاني: تضعيف الحرف نفسه، نحو: عدّ وفكّر، أو تكريره، نحو وسوس وهمهم، وهو يلي القسم الأول في الحسن، وأقل منه في الكثرة والاستعمال.

والثّالث: تأليف الحروف المتجاورة، وهو قليل في كلامهم أو منبوذ في الاستعمال كما تقدّم.

وهذا القليل الّذي قد يقع في كلامهم هو الّذي يكون عرضة للإماتة لثقله، نحو العَهْق، فإن فعله ممات، كما يقول ابن دريد٤، لمجاورة الهاء العين، ومثله إماتة الفعل ((عهم)) لتجاور حرفي الحلق٥، وقد ندر مجيء الرّاء بعد النّون ولاسيّما إن كانت النّون ساكنة والرّاء متحرّكة، وهذا قليل جداً في العربيّة.

وقد جاء في اللّسان٦: "النّرز: فعل ممات، وهو الاستخفاء، من فزع، وبه سمّي الرجل: نَرْزة ونارزة، ولم يجيء في كلام العرب نون بعدها راء إلا هذا، وليس بصحيح".

وعلّة الإماتة واضحة؛ لأن اللّسان يميل إلى الأسهل في النّطق في العادة؛ ولأنّ الحروف المتباعدة تجري من السّمع مَجرى الألوان من البصر، ولا شكّ في أنّ الألوان المتباينة إذا اجتمعت بان حسنها لعين النّاظر، بخلاف الألوان المتقاربة؛ ولهذا كان البياض مع السّواد أحسن منه مع الصّفرة٧، واللّغة تميل في أصل من أصول تطوّرها إلى مبدأ الاختيار والاصطفاء، فيترك ما ثقل على الألسن، وينبو عن الأسماع، فيموت.

ومن القواعد الصوتية لبنية الكلمة العربية أن الخماسي لا يخلو من حرف أو أكثر من حروف الذلاقة الستة: الراء واللام والنون والباء والفاء والميم، المجموعة في قولك: ((مربنفل)).

---

١ ينظر: المولد في العربية ١٤٤.

٢ سر الفصاحة ٥٧.

٣ ينظر: المصدر السابق ٥٨.

٤ ينظر: الجمهرة ٩٤٥/٢.

٥ المصدر السابق ٩٥٤/٢.

٦ (نرز) ٤١٦/٥.

٧ ينظر: سرّ الفصاحة ٦٤.

وكذلك الرباعي غير المضاعف إلا في النادر، وعلة ذلك أن هذه الأحرف خفيفة في اللسان فناسب أن تأتي في الخماسي والرباعي لتعطيهما شيئاً من الخفة.

أما الثلاثي فهو خفيف بعدد حروفه، فلا يجب أن يكون فيه حرف من حروف الذلاقة.

فإذا وُجد كلمة خماسية أو رباعية خالية من حروف الذلاقة فإنها تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون دخيلة أو محدثة مبتدعة - كما قال الخليل[8].

والآخر: أن تكون من بقايا الممات القديم .

قال الخليل: "فلما ذلقت الحروف الستة، ومذل بهنّ اللسان، وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام، فليس شيء من بناء الخماسي يعرى منها أو من بعضها...

فإن وردت عليك كلمة رباعية أوخماسية معرّاة من حروف الذّلَق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب؛ لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذّلَق والشفوية واحد واثنان أو أكثر"[9].

وقال الليث: "قلت: فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ فقال [الخليل]: نحو الكَشَعْثج، والخَضَعثج، والكَشَعْطج، وأشباههنّ، فهذه مولّدات لا تجوز في كلام العرب...

وأما البناء الرباعي المنبسط فإن الجهور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذُّلْق، أومن بعضها، إلا كلمات نحواً من عشركنّ شواذّ.

ومن هذه الكلمات: العَسْجَد والقَسْطوس والقُداحِس والدُّعشوقة..."[10].

ومن الرباعي الذي خلى من حروف الذلاقة: ((تَخْطَعّ)) و هو اسم ذكره ابن منظور في الرباعي، وقال: "قال ابن دريد: أظنه مصنوعاً، لأنه لم يعرف معناه"[11].

وقد يكون مماتاً ولذلك لم يعرف معناه .

ومنه: ((العُهْعُخ)) قال الخليل: "سَمِعْتُ كلمة شنعاء لا تجوز في التأليف الرباعي؛ سئل أعرابي عن ناقته فقال: تركتها ترعى العُهْعُخ، فسألنا الثقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب. وقال الفذّ منهم: هي شجرة يُتداوى بورقها.

وقال أعرابيّ: إنما هو الخُعْخُع، وهذا موافق لقياس العربية"[12].

ومنه ((القُداحِس)) وهو الشّجاع أو السيّء الخلق أو الأسد - كما يقول صاحب ((القاموس))[13].

ومهما يكن من أمر فإن كلماتٍ من هذا النوع الذي خلا من حروف الذلاقة لا يكتب لها البقاء في العربية؛ لأنها ثقيلة فتهجر وتموت، وقد لا تعرف، ولعل هذه الألفاظ النادرة التي رواها بعض العلماء هي من بقايا ممات غير قليل، وهذه الألفاظ القليلة المروية معرضة للهجر والإماتة أكثر من غيرها.

الفصل الثاني

العامل الدلاليّ

الدّلالة عنصر فعّال فيما يتّصل بإماتة الألفاظ، وإليها يعود موت كثير من الألفاظ المشهورة في العربيّة، وللإماتة هنا عدّة أسباب، ومن أهمّها:

١ - زوال المعنى .
٢ - الاستغناء .
٣ - العامل الديني .
٤ - العامل الاجتماعي.

وهي على النحو التالي:

المبحث الأول: زوال المعنى:

قد يزول معنى الكلمة وليس لها معانٍ أخرى تتشبّث بها، فتموت؛ لتفريغها من محتواها الّذي هو سرّ بقائها، وقد أشار إلى ذلك ابن فارس في قوله: "ومن الأسماء الّتي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم: المرباع، والنّشيطة والفضول..."[14].

وقال الجاحظ: "قال أبو عبيدة معمر بن المثنى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النّحوي حين أنشده شعر الأسدي:

ومركضةٌ صَريحيٌّ أبُوهَا … تُهَانُ لَهَا الغُلامَةُ والغُلامُ

---

٨ ينظر : العين ٥٢/١.

٩ الصاحبي المصدر السابق ٥٢/١.

١٠ العين ٥٢/١، ٥٣.

١١ اللسان (تخطع) ٣٢/٨.

١٢ العين ٢٧٤/٢.

١٣ مادة: (قدحس) ٧٢٨.

١٤ الصاحبي ١٠٢.

قال: فقلت له: فتقول للجارية: غلامة؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك، وأسماؤه زالت مع زوال معانيها؛ كالمرباع والنّشيطة..."١٥.

وقد قضى الإسلام على كثير من الكلمات الدّالّة على نظم جاهليّة، كالمِرْبَاع والصّرورة والنّوَافج والحُلْوَان والمَكْس، وغيرها، فماتت تلك الكلمات؛ لأنّ الإسلام غير من القيم الفكرية والاجتماعيّة التي كانت سائدة في الجاهليّة.

ولا مبرّر لوجود الكلمة في اللّغة عند ما لا تقول للعقل شيئاً، فإنّ اللّغة تهملها، كما يقول درمستيتر (Darmesteter)١٦.

وهكذا تتخلّص اللّغة من الألفاظ الّتي لم تعد كافية للتّعبير عن المعنى الّذي يناط بها؛ لأنّها ضعفت أو بليت١٧.

المبحث الثاني: الاستغناء

قد يؤدّي التّرادف إلى ترك بعض الألفاظ استغناء بمرادف لها؛ لأنّه يؤدّي معناها، فتموت الألفاظ المتروكة، قال سيبويه: "وأمّا استغناؤهم بالشّيء عن الشّيء فإنّهم يقولون: يَدَعُ، ولا يقولون: وَدَعَ، استغنوا عنها بترك، وأشباه ذلك كثير"١٨ وقد استغنوا باشتدّ عن شَدُدَ١٩، وباحمارّ عن حَمِرَ٢٠ وباستنوك عن نوك٢١.

وقال ابن الأنباريّ: "استغنوا عن وَدَعَ بترك؛ لأنّه في معناه، وكذلك استغنوا به عن وَذَرَ"٢٢.

وقال ابن جنّي في تركهم بعض المصادر: "يقال: نَذِرْتُ بالشّيء؛ إذا علمت به فاستعددت له، فهو في معنى فهمته وعلمت به، وطَبِنْتُ له، وفي وزن ذلك، ولم تستعمل العرب لقولهم نذرت بالشيء مصدراً، كأنّه من الفروع المهجورة الأصول. ومنه ((عسى)) لا مصدر لها، وكذلك ((ليس)).

وكأنّهم استغنوا عنه بأنْ والفعل، نحو: سرّني أن نَذِرْت بالشيء، ويسرّني أن تَنْذَر به"٢٣.

وقد يُمات الفعل المجرّد استغناء بمزيده، قال ابن دريد: "واللّحك من قولهم: لَحِكَ يلحَك لَحْكاً، إذا تداخل بعضه في بعض، وقد أميت هذا الفعل فاكتفوا بقولهم: تلاحك تلاحكاً"٢٤.

المبحث الثالث: العامل الديني

كان العرب على إرث من إرث آبائهم في لغتهم وآدابهم ونسائكهم وقاربينهم -كما يقول ابن فارس٢٥ - فلمّا جاء الإسلام حالت أحوال، ونقلت دلالات، وأميتت ألفاظ كره العرب النّطق بها في الإسلام؛ لأنّه نهى عنها للمدلول الّذي تحمله، قال عزّوجلّ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا}**٢٦ وقد قيل: "إنّ (راعنا) كلمة كانت تجري مجرى الهزء فنهى المسلمون أن يلفظوا بها بحضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك أنّ اليهود - لعنهم الله - كانوا اغتنموها فكانوا يسبّون بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نفوسهم، ويتسترون من ذلك بظاهر المراعاة منها، فأمروا أن يخاطبوه بالتّعزيز والتّوقير"٢٧ .

وقال ابن تيمية: "ومما يدل من القرآن على النهي عن مشابهة الكفار: قوله سبحانه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** .

قال قتادة وغيره: "كانت اليهود تقوله استهزاء؛ فكره الله للمؤمنين أن يقولوا مثل قولهم".

وقال أيضاً: "كانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: راعنا سَمْعَك، يستهزؤون بذلك. وكانت في اليهود قبيحة".

وروى أحمد عن عطية العوفي قال: قال: كان يأتي ناس من اليهود فيقولون: "راعنا سَمْعَك، حتى قالها ناس من المسلمين فكره الله لهم ما قالت اليهود". وقال عطاء: "كانت لغة في الأنصار في الجاهلية".

وقال أبو العالية: "إن مشركي العرب كانوا إذا حَدّث بعضهم بعضاً يقول أحدهم لصاحبه:

---

١٥ الحيوان ٣٢٩/١، ٣٣٠.

١٦ ينظر: المولد في العربية ٢١٨.

١٧ ينظر: اللغة لفندريس ٢٧٢.

١٨ الكتاب ٢٥/١.

١٩ المصدر السابق ٣٣/٤.

٢٠ المصدر السابق ٣٣/٤.

٢١ المصدر السابق ٣٦/٤.

٢٢ الإنصاف ٤٨٥/٢.

٢٣ المحتسب ٣٦٧/١.

٢٤ الجمهرة ٥٦٣/١.

٢٥ ينظر: الصاحبي ٧٨.

٢٦ سورة البقرة: الآية ١٠٤.

٢٧ التهذيب ٣٤١/٢.

راعني سمعك فنهوا عن ذلك وكذلك قال الضحاك. فهذا كله يبين أن هذه الكلمة نُهي المسلمون عن قولها لأن اليهود كانوا يقولونها، وإن كانت من اليهود قبيحة، ومن المسلمين لم تكن قبيحة لما كانت مشابهتهم فيها من مشابهة الكفار، وطريقهم إلى بلوغ غرضهم"٢٨.

ومن ذلك أنّهم أماتوا كلمة ((العَتِيرة)) وهي شاة كانت تذبح في الجاهليّة في رجب يتقرّب بها، ثمّ نسخت العتيرة بالأضاحي٢٩، وقيل إنّ العتيرة هي الشّاة الّتي كانت تذبح في الجاهليّة وتقدّم للأصنام، فيصبّ دمها على رأسها٣٠.

ومن ذلك ((الصّرورة)) روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنّه قال: "لا صرورة في الإسلام"٣١ وهو التّبتّل في الإسلام، وأصل الصّرورة أنّ الرّجل في الجاهليّة كان إذا أحدث حدثاً فلجأ إلى الحرم لم يُهَجْ، وكان إذا لقيه وليّ الدّم في الحرم قيل له: هو صرورة، فلا تَهِجه، ثم كَثُر ذلك في كلامهم حتّى جعلوا المتعبّد الّذي يتجنّب النّساء: صرورة، وصرورياً ٣٢، كما تقدم في الباب الأول.

وللرّافعيّ تعليل في إماتة الإسلام هذا النّوع من الألفاظ، وهو أنّهم كرهوا النّطق بها في الإسلام لخوفهم على العرب أن يعودوا في شيء من أمر الجاهليّة، فمنعوهم من الكلام الّذي فيه أدنى متعلّق٣٣.

المبحث الرابع: العامل الاجتماعي

قد تنحطّ دلالة الكلمة فتدلّ مباشرة على ما يستقبح ذكره، كدلالتها الصّريحة على قذارة أو نجس، أو عضو تناسليّ، أو غريزة جنسيّة، فيكون ذلك إيذاناً بتركها ثمّ موتها، فيبحث المجتمع عن كلمة أخرى ليس فيها ذلك المعنى المباشر، أو يلجأ إلى الكناية، ثم تستخدم الكلمة، فتحمل مع كثرة الاستعمال ما تحملته سابقتها، ومن ذلك كلمة ((الغائط)) مثلاً، فإنّها كناية عن ذلك الشّيء في أصل الاستعمال اللّغوي، ومعناها اللّغويّ القديم المكان المنخفض.

ويمكن القول: إن الأسباب الاجتماعية ((واضحة جداً في تغيّر الكلمات مراعاة للّياقة، إذ ليس من اللّائق أن يتكلّم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفظاظة، أو بأنّها مما يجرح الحياء))٣٤.

ويصل الحال إلى التّضييق من دائرة المفردات حتّى لا يتكلّم النّاس إلا تلميحاً أو بالكناية كما يحدث عادة في ألفاظ النّكاح، وهو ما يفسّر كثرتها؛ لأنّ النّاس يلجؤون٣٥ إلى ترك الكلمة لمجرد ما يتعلق بها ذلك المعنى، وعلى هذا ماتت كثير من الألفاظ في العربيّة، ورصدت المعاجم بعضه مع أنّه متروك في الاستعمال اللّغويّ الرّاقي، والأمثلة على ذلك معروفة.

وقد يكون للكلمة مدلول اجتماعي مكروه، لا يليق بمكانة الإنسان، ومن ذلك ما روي عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وقد جاءه قوم من العرب، فسألهم - عليه السّلام - فقال: "من أنتم" فقالوا: "بنو غيّان"، فقال: "بل أنتم بنو رشْدان"٣٦.

وعلّة ذلك ظاهرة، وهي أنّ غيّان من الغيّ؛ فكره لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الاسم، لما يحمل في طياته من دلالة اجتماعية غير مرغوبة؛ فأمر بتركه وإماتته.

---

٢٨ اقتضاء الصراط المستقيم ٤٥، ٤٦.

٢٩ ينظر: الجمهرة ٣٩٢/١.

٣٠ ينظر: النهاية ١٧٨/٣.

٣١ ينظر: سنن أبي دواد ١٤١/٢، وكنز العمال ٦٥٨/٣.

٣٢ ينظر الصاحبي ١٠٤.

٣٣ ينظر: تاريخ آداب العرب ٢٠٩/١.

٣٤ اللغة، لفندريس ٢٨٠.

٣٥ وتكتب أيضاً: يلجأون، وكتابة الهمزة – هنا - على الواو يرجحها كثير من العلماء . ينظر: الإملاء والترقيم ١٢١، والهمزة في الإملاء العربي ٣٧.

٣٦ ينظر: المبهج ٣٥، والمناهي اللّفظية ٢٥٢.